الخير المستثنى في الدنيا

الحمد لله الذي سجدت لعظمته كلُّ المخلوقات، وأقرَّت بوحدانيته كلُّ الكائنات، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، وجعله رحمة للعالمين.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد سيد الذاكرين، وإمام العالمين، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار الأخيار، وسلِّم يا ربِّ تسليمًا كثيرًا.

أوصيكم عباد الله وإياي بتقوى الله، فاتقوه وراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وتزوَّدوا من دنياكم لآخرتكم عملاً يرضاه، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد:

أخبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عن وصف الدنيا بمنظور الإيمان، وأظهر قدرها من خلال المعتَبَر فيها عند الله تعالى، وغيره لا يُعتَبَر، وذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمة الله عليه، وأورده الإمام النووي أيضًا في كتابه رياض الصالحين ورمز لحسنه.

يقول الحبيب المصطفى في هذا الحديث: **(أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ)**.

ومعنى (ملعونةٌ) كما تدلُّ عليه استعمالات العرب: أنها بعيدةٌ عن الخير، أي: **(ألا إن الدنيا بعيدة عن الخير، بعيدٌ عن الخير ما فيها إلا)**، فأتى بالمستثنى من ذلك البعد عن الخير، فدلَّ على سبب الخير والمستثنى من اللعنة (أي البعد عن الخير) فذكر أمورًا ثلاثة:

١- ذكر الله.

٢- وما يتابعه ويلازمه من الأعمال.

٣- والعلم الذي عناصره مُعلِّمٌ ومُتَعلِّم، والذي يُظهِرُ حقيقتَه عالمٌ أو متعلِّم، ولا بد منهما معًا.

فأحببت أن يكون الحديث عن هذه المفردات الثلاثة، ولماذا استُثنيت من الطرد والبعد عن الخير؟

١- أما ذكر الله: فمقصودُه وحقيقتُه خروج القلب عن الغفلة والجهل بالله، فليس المراد من الذكر أن يتحرك اللسان بعبارات، إنما الذكر التذكر، فإذا تذكّر القلب وحضر مع مولاه خرج عن غفلته وجهله، وحركة اللسان قد تكون محرِّكةً للقلب، لكن المقصود إنما هو اعتبار القلب وتذكره.

لكن لماذا استثني ذكر الله من البعد عن الخير؟ وما علاقة الخير بذكر الله؟ وما علاقة الذكر بالخير؟

حاضرُ القلب سيكون سابقًا لغافل القلب، لأن حضور القلب مع الله يُنتج الحرِّية من سواه، فغافل القلب محبوسٌ مقيَّدٌ في الأشياء، أما حاضر القلب فإنه حرٌّ عنها.

وبديهيٌّ أن الحُرَّ يستطيع أن يؤدِّيَ ما لا يؤديه المقيَّد، ومتى كان السجين المقيَّدُ قادرًا على أداء ما يفعله المطلق؟!

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] فليس السبق من أوصاف أهل الغفلة، إنما وصفُهُم التقهقر والكسل، وأنهم في القيد والرقِّ والانحباس في الأشياء.

وقال ربنا تبارك وتعالى وهو يصفهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] فهذا هو حال الغافل.

وهكذا قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم وغيره: **(سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)**، وفي رواية: **(سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ)** الذين أفردوا بقلوبهم ذكرَ الله تبارك وتعالى، **(قَالُوا: وَمَا الْمُفْرِدُونَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ)**.

وبعد هذا نستطيع – ومن خلال هذه القاعدة – أن نعمم في التطبيق، فالقاضي حين يكون ذاكر القلب وهو في محكمته سيكون سابقًا للقاضي الذي قلبُه غافل، والصناعيُّ الذي يكون حاضر القلب سيكون في الخير سابقًا للصناعيِّ الذي قلبُه غافل، والتاجر الذي يكون حاضر القلب سيسبق في الخيرات التاجرَ الذي قلبُه غافل، والأستاذ والتلميذ والوزير والحاكم والمحكوم... إذا كان قلبُ أيٍّ منهم في حالة الحضور فإنه سيكون حُرًّا عن الأشياء وسيكون سابقًا للغافل المقيَّد في الأشياء، الذي يقيده هواه، والذي توجهه الأشياءُ بعلائقها وجواذبها.

ومن هنا كان المستثنى الأولُ من البعدِ عن الخير ذكرَ الله.

٢– وما والاه: أي ما تابعه ولازمه وناسبه من الأعمال، فهو ملتحقٌ بذكر الله في الشرف، لأنه لّما لازم تلك المنـــزلة للذكر التحقَ في الشرف بها، فكلُّ عملٍ – أقرَّه ربُّنا سبحانه وتعالى سلوكًا – مقترنٍ بذكر الله، وبحال القلب الحاضر، صار يلتحق في الشرف والمنـــزلة بذكر الله، وصار أيضًا مما استُثني من البعد عن الخير.

سئل صلى الله عليه وسلم: أيُّ الجهاد أعظم أجرًا؟ قال: **(أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)**، قال سائله فأيُّ الصالحين أعظم أجرًا؟ قال: **(أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)**، ثم ما زال يسأله، ويذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة... أيٌّ منها أعظم أجرًا؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)**.

ولا عجب أن نرى اعتناء القرآن الكريم بهذا الاقتران بين الذكر والأعمال، فيذكر اقتران العادات بالذكر، ويذكر اقتران العبادات بالذكر، ويذكر أمورًا كثيرة يصير لها شأنٌ واعتبار حينما توالي وتتابع وتلازم ذكر الله.

فإذا كنت تعمل في التجارة فتجارتك لا قيمة لها وليس لها اعتبارٌ إلا إذا كانت مقترنة بمنـــزلة ذكر الله، لأنها إذا اقترنت بذكر الله ستكون منتجةً وفاعلةً وهادفةً وخادمةً للأهداف الفاضلة، أما إذا كانت خارج هذا الاقتران فستكون موظفة للأنا والنفسانيات والأهواء...

وقِسْ على هذا كلَّ الأعمال، من صناعة أو زراعة أو بناء أو وظيفة... فإما أن تكون لله أو أن تكون لنفسك، فإذا كانت لله فستندرج في المنظومة التي يحبُّها الله، وستكون معتبَرَةً ومُستثناةً من البعد عن الخير.

- فعلى سبيل المثال ذكر القرآن الكريم في العادات اقترانَ الطعام في الذبائح بذكر الله تبارك وتعالى، فقال: (فَكُلُوا مِمَّا ذكر اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ)(١١٨) الأنعام

- وفي الكَسْب، وطلب سبب المعاش، قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] لأن كَسْبكم لن يكون فلاحًا لكم إلا إذا اقترن بذكر الله واستمد منـــزلته من ذلك الأصل.

- وفي الأدب والشِّعْر قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧] لأن ذِكْر الله يجعل أدبهم وشِعْرهم خادمًا للرسالة.

فالطعام الذي يصحب قلبًا حاضرًا سيُوظَّف ويُصرف في خدمة الرسالة، والنوم الذي يكون مع حضور القلب مع الله سيُوظَّف في النتيجة أَثَرُ راحته في خدمة الرسالة، وفي خدمة الهدف الفاضل.

لكن إذا لم يكن كذلك، سيُصرف في الـــ: (أنا)، وفي خدمات النفس، وفي الدوائر الفردية الخاصة البعيدة عن معنى الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- وفي الحَجّ قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨] وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

- وفي الصلاة قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وذُكر في تفسيرها: أي فإذا قضيتم الصلاة فصلُّوا، فورد الذكر هنا بمعنى الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أي إلى الصلاة، والأمثلة كثيرة...

٣- وعالِمٌ أو مُتعلِّم: لأن العِلْم يُرشد إلى الطريق الأقوم.

فالذِكْر يولِّد الاستعداد، والعَمَلُ بسبب الذِّكْر يصير خادمًا للرسالة، لكنَّ العِلْم يوضِّح لك الرسالة، ويُوضِّح لك الطريق.

الذِّكر يجعل منك مُستعدًّا، والعملُ المقارِن للذِّكر يتحوّل إلى هادف، لكن العِلْم يضعك على طريق الهدف، ويُحدد لك المسار.

فبالعِلْم يُبنى الإنسان، وتُبنى الحضارة.

ما الفارق بيننا وبين أولئك الذين يتّبعون الشهوات، ونحن نـــزعم أننا أمةُ العِلْم وأمةُ اقرأ، ونـــزعم أننا أمةٌ انطلقت من العِلْم؟

هم يتعلّمون، ويبدأ العِلْم عندهم في الطفولة منذ عُمُر ثلاث سنوات.

نعم، أطفال أعدائنا في الكيان الصهيوني يُربَّون على هذا الأسلوب، ففي السنة الثالثة يُرسَل الطفل ليتعلّم الجُرأة، ليلعب ويستكشف، مُقترنًا ذلك بتوجيهٍ غيرِ مباشر، وفي السنة الرابعة يصبح مهيأً من خلال ذلك الاستعداد الذي حصل له في السنة التي قبلها، فيبدأ فعليًّا بالتعلُّم...

أين عنايتنا بالعِلْم؟

أين هي مدارسنا التي تعتني بالأطفال؟

فُتح باب المدرسة الخاصة، فتحوّلت القضية إلى طبقية بدلاً من أن تتحول إلى سبب نهضة.

لو أننا نريد نهضة هذه الأمة، لبذلنا الأموال لرعاية هذه المدارس، وخصصناها للمُبدعين، وأوجدنا لِجانًا عاليةَ التخصُّص لاستكشاف المواهب في المُبدعين، وبعد ذلك لا يكون هذا المُبدِع مُنفِقًا، بل مُنفَقًا عليه.

نفرح ونقول: نبني المساجد، ونـــزعم أننا نفعل خيرًا؟

أين بناء الإنسان من خلال المدرسة التي يُموِّلها أصحاب المال، فنرتقي فوق الطبقيات..؟

ابنُ الغنيِّ لو كان غبيًّا، يجب أن يُدرّس، حتى لو لم يكن لديه استعدادٌ للعِلْم!

أما الموهوب والمتفوِّق الذي تستطيع بمالك بناءه فلا يعتنى به...!

أين هو الفِكر الذي ينظر إلى العِلْم بقيمته؟

يُسمونا العالم الثالث، ونحن في العالم الثلاثين.

نحن في جهل مُطبِق.. وهم يستعملون التقانة والآلات المتطورة...

لما سلكنا في الماضي طريق العِلْم كنّا سادة العالَم، ونحن اليوم في التبعية لهم.

ودولٌ صغيرةٌ وعددها قليل تُسمي نفسها مجتمعًا دوليًّا، ودولٌ كثيرة لا قيمة ولا اعتبار ولا وجود لها، وليس لها كلمة، وليس لكلمتها أي اعتبار...

لماذا؟

نحن لو تعلّمنا فإننا نملك العِلْم مع قيمته المعنوية..

هُم تعلَّموا مع شهواتهم ونـــزواتهم وفوضويتهم، ونحن الذين نقول: إننا أمة الإنسانية.

هذا واقعنا..

وكثيرً ما نسمع: قام المُحسِن الفلاني ببناء مسجد، ونُسرِع لخدمة هذا المشروع لأنه مشروعنا، أما بناء الإنسان فنغفل عنه.

(الإنسان) الذي قَتْلُهُ أشدُّ عند الله من هَدْم أعظم مسجد، أي أعظم مِن هَدْم الكعبة المشرّفة نفسِها.

هذا هو الإنسان في اعتبارنا.

نحن نبني المسجد لكننا نُخرِّب الإنسان ونُهمله.

والعِلْم هو الذي يُعلِّمنا كيف نبني الإنسان، وكيف نبني الحضارة، وكيف لا نسمح للرَّعاع ولا لسفهاء العالَم أن يُوجِّهونا، وأن يقولوا لنا: هذا ممكن وهذا غير ممكن..

أصبحنا نخاف من (مجلس الخوف) فهو بالتأكيد ليس مجلس الأمن.

ونحسب الحساب لما يُسمى بقانونٍ دوليٍّ ومجتمعٍ دوليّ، وما هو إلا سُلطةُ أهل التسلُّط وأصحاب الظُلم.

لكن ماذا نصنع للتغيير؟

أين هو منهج العودة إلى العِلْم؟

ما نـــزال ننظر إلى التديُّن على أنه العبادة.

لا..

التديُّنُ هو العِلْم، فقد قال رسولُنا وإمامُنا سيِّدُنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم: (**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**)، أي كالفرق بين منـــزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدنى مسلم في الأمة.

هذا هو الفارق بين العالِم والعابِد.

منظورنا للتديُّن هو من خلال العبادة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعتبر التديُّن العِلْم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

هذه قيَمُنا، لكن متى سيتحول أغنياؤنا إلى فِكر البناء؟

متى سيخرج أصحاب الأموال عن الـــ: (أنا) للصالح العام؟

ومتى سيخرجون عن الفكر الضيِّق إلى فكر البناء الحضاري؟

إنهم يبحثون عمن يُغذِّي ضيقهم الفكريّ، ويُقدِّسون من يُغذِّي ويُدعِّم ضيقهم الفكري.

إذا بقينا على هذا، لا نتنبّه للموهوبين ولا نتنبّه للأطفال، فسنبقى متخلفين.

لا تتحدّثوا عن جيل الكِبار فقد فاته قطار الحضارة، لكنه يمكن أن يكون اليوم داعمًا، وتنبّهوا إلى الأطفال، فإننا إذا قُمنا بخدمة الجيل الناشئ بالمال وبالتعليم وبالرعاية واعتبار إنسانيته... أعتقد أننا نستطيع أن نضع خطوةً في طريق بنائنا الحضاري، وإذا لم نبدأ هذه الخطوة فستبدؤها الأجيال التي بعدنا.

هكذا استفاقت أوربا من العصور الوسطى من الجهالة، فتعلّمت من مكتبات الأندلس، وبدأت بعد ذلك مسيرة حضارتها.

وهكذا ينبغي أن نفعل.

علينا أن نتعلّم ما عَلِمُوه لنتابع العِلْم، ولتكون عندنا هذه الثلاثيةُ:

(ذِكْر الله، وما والاه، مع العِلْم الذي فيه عالِمٌ ومُتعلِّم).

ولاحظوا الجانب الإنسانيّ في هذا العلم، فالمتعلِّم من مجرد كتابٍ لا يحقِّق علمًا، إذ لا بد من عالمٍ ومتعلِّم، أي لا بد من العنصر الإنسانيِّ في العلم، فلا ينفع أن نقول: (اقرؤوا)، فالقراءة داعمة، ولا بد من العنصر الإنساني، لأن العنصر الإنساني هو الذي يبني، ولا تتصوروا أن الآلات تصنع حضارة، فالإنسان هو من يصنع الحضارة.

فإن نجحنا في تحقيق هذه الثلاثية فينا عند ذلك نُستثنى من اللعنة، ومن المهانة، ومن الذل والاحتقار الذي نعيشه اليوم، حيث العالم ينظر إلينا نظرة استخفاف.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.